الباب الثالث

التوحد اللغوى والعربية الباقية

التوحد اللغوى بين اللهجات:

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم ببعض أفرادًا وجماعات وأممًا، ولهذا الاتصال آثاره اللغوية، فلهجات ولغات تلك الجماعات والأمم تتلاقى ويستفيد بعضها من بعض، والتأثر الذى يعترى لهجات اللغة الواحدة قد يبدو عاديًا حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرًا كلهجات القرى والمدن فى أية دولة، فلكل منها سمات تمتاز بها من الأخرى، وبينها اشتراك فى مظاهر كثيرة تستخدمها من اللغة العامة ولذا لا تستعصى إحداها على الفهم خارج حدودها، اللهم إلا فى حالات العزلة التى تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التى تفصل بعضها عن بعض أمور جغرافية واجتماعية فإنها تؤدى إلى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها، وقد تستعصى على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة، وحين تتجاور اللهجات الخاصة فى المدن الكبرى والقرى المجاورة لها تزيد درجات التأثر، ففى داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ويحاول الأدنى تقليد الأرقى، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة، وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلى عن خصائص لهجاتهم وتقليد المدينة، لأن حضارة أهل المدن وثقافتهم تجعل الرغبة فى تقليدهم ملحة لدى الريفيين.

وقد أجريت بحوث فى هذا الحقل أوضحت عوامل تفوق لهجة على أخرى، وهى تعود فى معظمها إلى الثقافة والحضارة والنفوذ والسلطان وعدد الناطقين ونحو ذلك فإذا انفردت إحداها بمزية بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات نفوذ سياسى أو تجارى أو دينى واسع أو كثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على أختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى، وقد حدث هذا كثيرًا فى التاريخ اللغوى فاللاتينية التى صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيرًا لغة العالم بأسره كانت لغة روما أولاً وقبل كل شىء، أى لغة المدينة فى مقابلة الريف المجاور واللهجات القاصية على السواء[1].

(١) اللغة لفندريس: ص ٢٢٩.

واللهجة الباريسية أصبحت لغة فرنسا بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية إنما خرجت من العاصمة ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة وهى البرجوازية، وقد استقرت فى القرن التاسع عشر وسلم بها القصر ثم الأقاليم والكتاب الكبار باستعمالهم إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرارها لذلك لا نكاد نحس فيها أثراً للهجات)[1].

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية[2] ولهجة فلورنسا (فى إيطاليا) لهجة المجتمع الراقى بهذه المدينة هى التى صارت لغة إيطاليا.

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية قبل الإسلام لتحقق النفوذ السياسى والاقتصادى والدينى لها.

ويمكن أن تنشأ على أثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة وما بقى من خصائص اللهجات الأخرى المنحدرة.

وهذا التوحد اللغوى ـ الذى أشرنا إليه ـ يخضع لعوامل كثيرة أهمها:

١ - العامل السياسى:

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسى واحد يؤدى إلى تقارب لهجاتها ثم توحدها فى لغة عامة، فالساسة والحكام يجردون أحاديثهم العامة فى مختلف المناطق من المظاهر الصوتية والصرفية والمعجمية وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة أو طائفة حرفية ولو كان الحاكم من أبنائها ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوما لدى كل الطبقات الاجتماعية ونلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطنى المناطق الأخرى فيحاولون تقليد لهجاتها والتخلى عما تنفرد به لهجاتهم الأصلية ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية، ويمكن أن نمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية التى كانت لهجة باريس ثم انتشرت فى جميع البلاد الداخلة فى المجال السياسى الفرنسى.

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٣٥.

واللاتينية صارت لغة إيطاليا المشتركة، وأخيرا لغة المجتمع الغربى بأسره[١] تبعا للنظام السياسى وذلك فى الإمبراطورية الرومانية[٢] القديمة وعدم خضوع الدولة لنظام سياسى واحد يضع الصعوبات فى طريق التوحد اللغوى، فألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة[٣].

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية فى عامية متعلمى الألمان حتى فى أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوربية[٤]، ولذا قام انتشار الألمانية المشتركة فيها على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية، فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شىء لغة كتابة تدين بنجاحها إلى أسباب دينية كما تدين بأصلها إلى الرغبة فى الاستعمار، وكانت هناك حركة مارتن لوثر وترجمته للكتاب المقدس، وهناك لغة المستشاريات فى المدن والإمارات الألمانية، والألمانية كانت تحتل الأراضى السلافية قدما بقدم وتحل محل اللغات السلافية فتكونت الألمانية المشتركة فى مدن الاستعمار فى ألمانيا الشرقية، تلك اللغة التى وصلت بفضل الإصلاح الدينى إلى أهميتها الأدبية واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة وصارت لغة الكتابة فى ألمانيا المثقفة بأسرها[٥].

٢- العامل الاجتماعى والاقتصادى:

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب والمصاهرة، ويلتقون للتجارة وتبادل المنافع فى شتى المجالات، وقد تنشب بينهم المنازعات، وهذا يؤدى إلى اختلاطهم وقوة الاتصال بينهم ولذلك أثره فى التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التى تنفرد بها كل لهجة.

ومن الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد ـ فى لغة عامة ـ قبل الإسلام بحوالى قرن ونصف أو قرنين من الزمان، لما

---

(١) المصدر السابق: ص٣٢٩.

(٢) اللغة والمجتمع د. محمود السعران ص١٧٤.

(٣) المصدر السابق: ص١٧٤.

(٤) اللغة: ص٣٣٣، ٣٣٤.

(٥) المصدر السابق.

كان بين أهلها العرب من ارتباط فى النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة والجوار والتعامل التجارى وغيره من الصلات الاجتماعية.

٣- العامل الأدبى:

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوى، فالأدباء من قصاص وشعراء يكتبون أدبهم بلغة يفهمها جميع الشعب بمختلف طبقاته، ليروج ويذيع، وتلك اللغة التى يكتبون بها تتخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية لأى إقليم من أقاليم الدولة، وهذا يهيئ سبيل التوحد للهجات الجماعات المتعددة.

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر اللذان عنيت بهما الأسواق الأدبية كعكاظ وذى المجاز والمجنة، وكم جرى التنافس والمبارزة بين الشعراء فى هذه الأسواق ليحكم لهذا بالتفوق على ذلك وكانت تلك الأشعار مصدر إمتاع للجماهير العربية، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا قامت على أساس اللهجة القرشية وما استفادته من محاسن اللهجات الأخرى.

وفى أوربا توحدت لهجات مشتركة من أصل أدبى محض مثل الإيطالية التى استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام وتأثيرهم مثل دانتى وبترارك ولوكاشيو وذلك فى وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية، وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم... واللغة التى رفعها (دانتى) إلى مرتبة اللغة الأدبية والتى صارت لغة إيطاليا المشتركة كانت أولا وقبل كل شىء لغة مدينة هى فلورنسا. ولغة المجتمع الراقى فى هذه المدينة[١].

٤- وسائل الإعلام:

لوسائل الإعلام كالإذاعة المسموعة والمرئية ودور الخيالة (السينما) والمسارح والصحافة وغيرها أثرها فى التوحد اللغوى فهى لسان حال الأمة والمعبر عن

(١) المصدر السابق: ص٣٣٥.

أغراضها السياسية والاجتماعية، وهى تستخدم لغة أشبه بأن تكون عامة فيما يسمع أو يكتب على سواء ففى الأقطار العربية ـ مثلا ـ تستخدم الفصحى وبعض الأساليب العامية التى يفهمها الجميع، وتلك الوسائل ـ بلا شك ـ لها خطرها فى التأثير على الناس وتكوين لغة عامة.

٥- المدن الكبرى:

للمدن الكبرى أثرها فى نشوء لغة مشتركة إذ تتطلع إليها أنظار سكان الأماكن المجاورة لها والبعيدة عنها فيكثر الغادون إليها من كل صوب، وهم حين يلتقون داخل تلك المدن يحاولون ـ عادة ـ التخلى عن سمات لهجاتهم الأصلية، ويميلون إلى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا، فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم يلتقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا إلى أى حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الشعب كله.

فالدور الأساسى الذى آل إلى أثينا بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية أدى إلى ظهور لغة مشتركة مستمدة من اللهجة الأتيكية ولكن زاد من قوة الأتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانيها فكان لأثينا ـ بوصفها مركزا سياسيا وأدبيا وفنيا على السواء ـ شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى التاسع بعد الميلاد أداة للتفكير عند جميع الإغريقيين[1].

وقد تكونت الإنجليزية المشتركة فى مدينة لندن التى ساعد موقعها على أن تكون ملتقى لمختلف اللهجات (هذا إلى أن تكون اللغة المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجئ حيث أخذت تلتقى بين أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم، يفدون عليها من الأقاليم، ويمتزجون بالسكان السابقين، هذه الهجرات أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات حتى لتجد نطق الإنجليزية فى القرن السابع عشر لم يثبت بعد، وأنه يشتمل على عدد كثير من وجوه الخلاف، ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم، ولكن هذه الهجرة الإقليمية أنعشت تبادل السكان بين

(١) المصدر السابق: ص٣٢٨، ٣٢٩.

العاصمة والأقاليم، ذلك التبادل المفيد الذى أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة وإذا فإنجلترا تدين ـأيضاًـ بتوحيد لغتها توحيدا نسبياً إلى أهمية عاصمتها)[1].

وفى مدينة القاهرة تتزاحم اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية بلقاءات أصحابها ولذا تميل إلى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع.

٦- الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية:

فالدين يجمع الناس حول كتاب واحد يقرءونه ويتعبدون به ويطبقون أحكامه ويدعوهم إلى الاجتماعات العامة فى الصلوات والأعياد والحج وغيرها ولذلك أثره الكبير فى التوحد اللغوى.

ولا شك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية تؤدى دورها فى اتخاذ لغة عامة فدور العلم والثقافة وطلابها الذين يفدون من مختلف الأقاليم ويلتقون فى المدارس والجامعات وقصور الثقافة والمكتبات وما شاكلها ولقاءات الثكنات العسكرية كذلك له أثره فى تخلى هذه الطوائف عما لا يفهم من لهجاتها ويتجهون بذلك إلى لغة عامة.

وقد حاول تيمورلنك أن يضع لغة لجيشه تسهل مهمة قواده، ومع فشل تلك المحاولة فإنها تدل على احتياج الجيوش إلى نظام لغوى مفهوم لدى أوساطها المتباينة[2].

وفى إطار هذه الأسباب الداعية إلى توحد النظام اللغوى فإن العالم العربى قد توافرت له علاقات كثيرة اجتماعية ودينية وسياسية وأدبية وثقافية وربطت بين أرجائه الإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة وسبل المواصلات فبرزت فيه لغة مشتركة تتمثل فى العربية الفصحى التى تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المنتشرة فيه.

---

(١) المصدر السابق: ص٣٣١، ٣٣٢.

(٢) اللهجات العربية للدكتور إبراهيم نجا ص ٢٤، ٢٦ واللغة والمجتمع للدكتور السعران ص ١٧٢، ١٧٥.

ولا ننسى أن نشير إلى أن اللغة المشتركة التى تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها لا تتخلص نهائياً من خصائص اللهجات المحلية، بل تبدو آثارها فيها وتنعكس عليها.

ويتجلى هذا الأثر واضحًا فى العربية الفصحى المعاصرة واللهجات العامية المتفرعة منها، وقد أشرنا -من قبل- إلى ما تحويه اللغات المشتركة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التى شاركت فيها[1].

***

(١) انظر كتابنا: علم اللغة بين القديم والحديث ط ٢ من ص ١٦٥- ١٧٣.

العربية الباقية

يقتضينا الحديث عن عوامل الانقسام والتوحد فى اللغة، أن نبين موقف لغتنا العربية التى ورثناها عن أسلافنا من التوحد والانقسام.

فلغتنا العربية بدأت على ألسنة العرب الأولين وقبائلهم القديمة من أمثال (عاد) التى كانت تعيش فى جنوبى الجزيرة، وثمود التى كانت تجاور الآراميين فى شماليها.

وهذا التفرق للقبائل دعا إلى ظهور لهجات عربية هنا وهناك، إلا أن قبائل الشمال تأثرت لهجاتها ـ فيما يبدو ـ بالآرامية التى هى إحدى اللغات السامية ـ أخوات العربية ـ وقد وصلتنا نقوش تحمل بعض هذه اللهجات وتبين بعض معالمها الصوتية، وخصائص القواعد والمفردات فيها.

ولما اندثرت القبائل القديمة المتحدثة بهذه اللهجات كانت بقايا منهم لاتزال تحمل لغة الآباء، وتتحدث بها، وعن طريقها نقلت إلينا العربية الباقية.

وإذا صح أن نطلق على اللهجات التى تحدثت بها قدامى القبائل العربية اسم (العربية البائدة) ـ لأنها قد بادت مع أهلها ـ فإننا نسمى اللغة التى وصلتنا بـ(العربية الباقية) لبقائها فينا حتى اليوم.

وقد عاشت العربية فى شمالى الجزيرة (نجد والحجاز وتهامة) واستطاعت فى القرن السادس الميلادى أن تبسط نفوذها فى الجزيرة كلها وتدخل اليمن مرة أخرى، وتسيطر عليها وتمحو ما بقى فيها من لهجات، وتحل محلها، وهذا لأن أهلها العدنانيين استطاعوا أن يسيطروا على جنوبى الجزيرة بعد أن ضعف نتيجة الغزوات المتتالية من الفرس والأحباش، وتبعهم الزحف اللغوى، فتوحدت حينئذ لهجات الشمال والجنوب فى لغة عامة واحدة قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين عامًا تقريبًا[1].

(١) قبل القرن الخامس الميلادى أخذت خصائص اللهجات العربية الشمالية القديمة واللهجات العربية الجنوبية القديمة تنصهر وتخضع لحسن العربية الفنية ولذوقها ومما لا جدال فيه =

وإذا بحثنا عن أولية العربية الباقية فلن نستطيع الوقوف عليها لأن التاريخ اللغوى مجهول ولم تصلنا آثار ترشد إليه، وكل ما نعرفه أنه توافرت لدينا نصوص أدبية - شعرا ونثرا - متكاملة القواعد والنظام اللغوى وهذا يعبر عن لغة بلغت شأوها من النضج والقوة لكنه لا يرشد إلى فترة طفولة أيام كانت ساذجة ضعيفة غير مهذبة القواعد والتراكيب.

وهذه اللغة التى بلغت غايتها من النضج والتكوين هيئ لها أن تنتشر فى الجزيرة العربية الواسعة حيث تختلف البيئات والعادات والتقاليد بين الشمال والجنوب، والأحوال التى يعيش فيها أبناء العرب فى مواطنهم المتعددة ولذا لم تلبث أن انقسمت إلى لهجات عديدة فى أنحاء الجزيرة.

ولم يعش العرب فى جزيرتهم منعزلين بعضهم عن بعض وإنما كانوا يلتقون فى التجارة وفى الأسواق الأدبية التى يتبارى فيها الشعراء والأدباء ويقدمون نتاج قرائحهم، وقد أدت لقاءاتهم المتعددة، وسماع كل عربى للهجات إخوانه من المناطق الأخرى إلى أن يستفيد كل منهم من صاحبه من الناحية اللغوية كما يستفيد منه من النواحى التجارية والثقافية وغيرها.

وكان القرشيون يلتقون - كغيرهم من القبائل - بإخوانهم العرب من كل مكان، وقد ساعدت عوامل كثيرة على تهذيب لهجتهم، وتهيئة الفرصة لها لتحتل الصدارة بين اللهجات العربية الأخرى، وأهم هذه العوامل:

١ - نفوذهم الدينى:

كان القرشيون يحظون بتقدير العرب لهم، لأنهم هم الذين يتولون سدانة البيت الحرام والقيام على شئونه، وكانوا يستضيفون الحجاج ويقومون على سقايتهم[١]،

= أن ذلك الانتقال والتطور التدريجى للعربية قد حدث فى الحقبة التاريخية الواقعة بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين ومن الجائز أن يكون ذلك قد حدث قبل القرن الثالث الميلادى، انظر دراسات فى اللغة العربية د خليل نامى ص ١٧، ١٨.

(١) السيرة النبوية ١/ ١٢، ١٢٥، ١٣١ وتاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٦٠.

وتعليمهم مناسكهم[1]، وبعد حادث أبرهة الأشرم توطد مركز قريش حتى قالت العرب عنهم: «أهل الله قاتل عنهم فكفاهم مؤونة عدوهم»[2]، وهذا كله جعل لقريش سلطانًا دينيًا يعترف به العرب جميعًا[3] حتى قيل عنهم «قريش أئمة الناس وهداتهم وأهل البيت وصريح ولد إسماعيل وقادة العرب»[4].

٢- نفوذهم التجارى:

انطلق القرشيون فى أنحاء الجزيرة وما حولها من الأقطار فى الشام وفارس والعراق ومصر والحبشة وكلهم ثقة واطمئنان لما لهم من مكانة بين العرب أساسها النفوذ الدينى[5].

وكانت أنشطتهم التجارية كبيرة وواسعة ففى رواية للطبرى أن إحدى قوافلهم التجارية بلغت خمسمائة وألف بعير ومائة رجل، ولا ريب أن هذه القافلة التجارية الكبيرة كانت تحتاج إلى أدلاء ذوى معرفة وخبرة بالصحراء وطرق التجارة وحراس يحمونها من السلب والنهب وكانت قريش تستخدم فى ذلك رجالاً من قبائل العرب المختلفة فى الجزيرة ولا سيما البدو[6].

وقد ازدهرت تجارة قريش ولا سيما بعد انهيار سد مأرب سنة ٤٥٠م وطرد قبيلة خزاعة من مكة.

وكانت لهم سفن تنقل التجارة من الحبشة وإفريقية الشرقية عبر البحر الأحمر وكانت تنقل تجارتها وتجارة اليمن إلى أسواق فلسطين وتنقل تجارة الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن[7]، وهكذا تجارة الأقطار الأخرى.

---

(١) الخصائص ١/ ٣٣.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٥٠ وتاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٩.

(٣) تاريخ العرب العام ص ٥١.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/ ٣٨، ٨٦ والسيرة النبوية ٤/ ١٥٢.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٥٢، ٢٧٧، ٣٢٧، ٣/ ٦٣، ٤/ ٥٦، والطبقات الكبرى ١/ ٤٥، ٤٨ والسيرة النبوية ١/ ١٢٥، ٢/ ٦٩، ١٨٢، ١٨٠، ٢٨٨، وفتوح البلدان للبلاذرى ١/ ٦٧ ومغازى الواقدى ١/ ١٦، ٢٧.

(٦) السيرة ٢/ ١٨٢.

(٧) الطبقات الكبرى ١/ ٤٣ وموسوعة التاريخ الإسلامى د. أحمد شلبى ص ١٢٦.

ولا ريب أن ذلك كله جعل لقريش مركزاً تجارياً أثروا من ورائه ثروات طائلة ووطد صلاتهم بالقبائل العربية المختلفة.

وقد نزل القرآن الكريم مشيراً إلى رحلاتهم التجارية صيفًا وشتاء قائلا: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش: ١، ٢].

٣- نفوذهم السياسى:

لا ريب أن القرشيين فى مكة حظوا باستقرار ونظام[1] فى حياتهم الاجتماعية نتيجة لما تمتعوا به من نفوذ دينى واقتصادى واسع وقد تهيأ لهم طائفة من الزعماء الذين كانوا يتدخلون لفض النزاعات سواء بين بطون القبيلة المتعددة أو بين المتنازعين من غيرهم وكانت مكة حرمًا آمنًا من ورد إليه لا يظلم ولا يعتدى عليه، إلى جانب ما كان لقريش من علاقات ودية طيبة مع القبائل المختلفة فى داخل الجزيرة وعلى أطرافها فى الطريق إلى الشام أو العراق ولعل للنفوذ التجارى واستخدام بعض هذه القبائل فى شئون التجارة أثرًا بينًا فى تحقيق السيادة القرشية إلى جانب ما تمتعوا به من نفوذ دينى أشرنا إليه من قبل، وكانت لهم أحلاف كثيرة مع القبائل، كل هذا جعل لهم سيادة سياسية بين العرب جميعًا حتى قال أبو بكر الصديق عقب وفاة النبى ﷺ والبحث فيمن يخلفه: «لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش».

٤- نفوذهم اللغوى:

ونتيجة لكل ما سبق اتسع نفوذ القرشيين اللغوى فنمت لهجتهم وازدهرت وسادت اللهجات الأخرى فأصبحت لغة عامة للعرب جميعًا واستعملتها القبائل المختلفة فى نتاجها الأدبى الرفيع، يقول الدكتور إبراهيم أنيس:

«فبيئة مكة قد هيئت لها ظروف وفرص بعضها دينى وبعضها اقتصادى واجتماعى مما ساعد على أن تصبح المركز الذى تطلعت إليه القبائل وشدت إليه

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢/٢٦ والسيرة ١/١١٥، ١٢٢ والطبقات الكبرى ١/٤١، ٤٢، ٨٢ وغيرها

الرحال قرونًا قبل الإسلام وكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست فى كثير من صفاتها على لهجة مكة ولكنها استمدت أيضًا الكثير من صفات اللهجات»[1] ومما سهل سبيل الغلب أن أهلها بعدوا عن التعصب لها ففتحوا أمامها الطريق لتستفيد من اللهجات الأخرى ما حسن وعذب، وبهذا استطاعت أن تعبر عن كل حاجات الحياة وفنون الكلام وغنيت بكل الوسائل التى جعلتها مرنة تصلح لكل الأغراض[2].

وسواء أكانت لغة قريش وحدها هى اللغة الفصحى أم أضيف إليها بعض اللهجات الأخرى لتكوين اللغة المشتركة فقد أصبحت لغة العرب جميعًا قبل نزول القرآن الكريم لغة يحتذونها فى خطبهم وأشعارهم ونزل بها القرآن الكريم فقوى من شأنها ودعم من سلطانها.

وقد اعتبرت تلك اللغة أفصح اللهجات وأنضجها لما بعدت عن الأمور التى تخل بالفصاحة ولنستمع إلى هذا الحوار الذى دار بين معاوية بن أبى سفيان ورجل من السماط حول أفصح الناس قال معاوية للرجل: أى الناس أفصح؟ قال: قوم ارتفعوا عن رتة العراق وتياسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن شنشنة تغلب ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير قال معاوية: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قريش قال: صدقت فممن أنت؟ قال: من جرم، قال الأصمعى: وجرم من فصحاء العرب[3].

وقد اعتبر ابن خلدون لغة قريش أفصح وأصرح من غيرها من اللهجات العربية «لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم»[4].

ويوضح ذلك أن ابن جنى يعتبر مقياس الفصاحة قائمًا على صحة السليقة والبعد عن الأعاجم وعدم التأثر بهم ويتبين هذا من الفصل الذى عقده فى

(١) مستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٨.

(٢) فقه اللغة د. وافى ص ١٤٠.

(٣) العقد الفريد ١/ ٢٠٧، وانظر: درة الغواص، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٣.

خصائصه بعنوان: (باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) يقول:

«ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شىء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر وكذلك أيضًا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها»[1].

وعلى هذا فليس اعتبار لهجة معينة أفصح من غيرها إلا بمقدار بعدها عن مظاهر الفساد واللحن وقد تحقق هذا فى اللغة المشتركة التى كانت لسان العرب جميعًا ولا مجال للقول بأن العصبية هى التى جعلتها أفصح من غيرها.

وأما تغلب اللغة العربية على لغات الأمم التى دخلت الإسلام فكان لعوامل دينية ولسماحة الإسلام وإرادة المسلمين من هذه الأمم أن يؤدوا فرائضه بلغته وأن يحظوا بالمكانة فى الدولة الإسلامية الجديدة ولعوامل داخلية فى جوهرها الذى جعل الأجانب يعجبون بها وبطرائقها اللغوية.

يقول ابن جنى وقد بهرته العربية بسحرها وجمالها: «لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من الرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلاً عن التقديم لها والتنويه منها»[2].

ويقول أيضًا:

«إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه»[3].

وهذه شهادة عالم ثقة أدلى بها ليبين الدوافع التى جعلت المسلمين يتركون لغاتهم الأصلية ويتجهون إلى العربية يتكلمونها ويتحدثون بها وهذا هو الذى جعل العربية تصرع لغات البلاد المفتوحة وتقضى عليها.

---

(١) الخصائص ١/ ٢٤٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٥.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٤٣.

فالحق أحق أن يتبع وهو أن تفـوق العربية كان لعـوامل ذاتية من داخلها لا من خارجها.

وحقا ما قال الأستاذ العقاد:

«إن للأمم فى تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها يضيق بها نطاق البحث ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها وحجتها الكبرى أنانية قومية تشبه أنانية الفرد فى حبه لنفسه وإيثاره لصـفاته بغير حاجة إلى دليل أو مع القناعة بأيسر دليل، ولكن الفصـاحة العربية فـى دعوى أهلها مفـخرة لا تشبه هذه المفـاخر فى جملتها لأن دليلها العلمى حاضر لا يتـعسر العلم به والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة، ولا حاجة له فى هذا الدليل إلى غير النطق وحسن الاستماع»[1].

ولكن بعض الباحـثين المحدثين يعارضـون هذا الرأى فيرى بعضـهم أن الذى جعل القدماء يقولون بسيادة القرشية سبب واحد هو أن النبىﷺ من قريش أما أن قريشًا لهم نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فتلك مسألة يرفضها الدرس اللغوى الصحيح، إذ أنه لا معنى لأن نقول: إن هناك لغة ـ مهما تكن ـ أكثر فصاحة من لغة أخرى[2].

ويقول الدكتور جواد على منكرًا أيضًا:

«وأما قولهم إن هذه اللغة الفصحى هى لغـة قريش، لإجماع العرب كافة على أن لغة القـرآن هى لغة قريش، وعدم ظهـور أحد أنكر هذا الإجماع أو جـادل فيه رغم ما كان من الخصومات السياسية بيـن قريش وغيرها من قبائل مضر، فقول لا يستند إلى حجج تاريخيـة، بل هو يصطدم مع واقع النصوص الجاهلية الواصلة إلينا، وبعضـها نصوص لا تبتـعد عن الإسلام بكثيـر، وقد كتبت كلها بـلهجات تختلف عن هذه اللغـة الفصحى التى نزل بها القـرآن ، وفى اختلافهـا عنها دلالة على أن الشعـوب التى كتبت تلك النصـوص لم تكن تكتب بعربيـة القرآن، وفى هذه الدلالة تفنيد لقول من قال إن لهجـة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية، لا فى الحجاز ونجد فحسب بل فى كل القبائل[3].

(١) اللغة الشاعرة ص ٥٤، ٥٥.

(٢) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ص٤٢.

(٣) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/ ٦٤٠.

ويرى الدكتور تمام حسان أن الفصحى المشتركة هى لغة العرب جميعًا، وليست القرشية وحدها لأدلة:

١- أن القرآن نزل بلسان عربى مبين ولم ينـزل بلسان قريش، ولو كانت الفصحى أصلها لهـجة قريش لأشاد النبى ﷺ بفـصاحة لهجـته، مع أنه أشاد بفـصاحة نفسه، وأشـار إلى أنه نشأ فى سعد بن بكر - من عليـا هوازن - وليست أولى بالفصاحة من قـريش، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] فإذا كانت إحدى الآيتين تفسر الأخرى فإن (قومه) هنا هم العرب جميعًا لا قريش فقط.

٢- كانت للهجة قريش خـصائص لم تشع فى الاستعمال العربى كتـسهيل الهمزة وقد شـاع تحقيـقها فى النـص القرآنى مما يدل على أن بالنص القـرآنى ما ليس بلهجة قريش من الخصائص ويتحقق فى اللهجات الأخرى.

٣- أن القرآن نزل على سـبعة أحـرف، وتعددت قراءاتـه، وفى القراءات ظواهر لغوية لم تشتمل عليها لهجة قريش.

٤- خلو النصوص الأدبيـة الجاهلية من أثر لقـريش ولم يسمع عن شاعـر جاهلى قرشى فحل، على حـين نجد الشعر فى قبائـل عربية شمالية وجنوبيـة حجازية ونجدية.

٥- مخـاطبة الرسول ﷺ للقـبائل بلغاتـها مشـيرًا إلى أن هذه اللهجـات لها من الفصاحة ما للهجة قريش، ومن ثم لم يكن بها من افتقار إلى الأخذ عن لهجة قريش، ولم يكن بأهلها من إحساس بالضعة يدعوهم إلى ذلك.

٦- أن النحاة حين حـددوا قبائل الفصاحـة، وجعلوا لهجاتهم مـصادر فى النحو العربى، لم يقـصروا الأخذ على قريش، بل لم يقبلـوا الأخذ عن قريش وإنما سمعوا ممن عـداها من قبائل الحجاز ونجد ذاهبـين إلى سكان البرارى ممن كانوا أشد توحـشًا وجفـاء وأبعد إذعانًا وانقـيادًا وهم: قيـس وتميم وأسد وطيئ ثم هذيل.

٧- فقدان السند التاريخى الذى يفيد أن لهجة قريش هى الفصحى المشتركة فدعوى جعل القرشية هى الفصحى افتراض يتعارض مع الحقائق المسلمة التى تقدمت[١].

وهذه بذور لآراء استشراقية، إذ يذهب بعض المستشرقين إلى أن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح، إذ من الصعب أن نتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها فى بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى فقد كانت بيئتها موردا للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة فى الأسواق، وكانت قريش بحكم زعامتها الدينية والاقتصادية دائمة الاتصال تقريبًا بهذه القبائل، وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال إنه لا وجود لها وما هى فى حقيقة الأمر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى تكون على مر الزمن وانتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة البيئة الحجازية التى تسكنها قريش[٢].

والحقيقة أن وقوع بعض الدخيل فى القرشية لا يؤدى إلى محو أصلها وتأصل الدخيل فيها، وهذا زعم استشراقى لهؤلاء المستشرقين الذين يحاولون بكل الوسائل ادعاء أن الفصحى غير لهجة قريش.

والقرشية ليست بدعا من اللهجات التى سادت لعوامل حضارية، ففى كل اللغات حدث مثل ذلك كأن صارت الباريسية لغة فرنسا ولغة روما لغة إيطاليا بل لغة الإمبراطورية الرومانية كلها.

وقد سادت القرشية الجزيرة قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وتحقق نفوذها الواسع فى مكة وما حولها بل فى الجزيرة كلها.

ويقول الدكتور شوقى ضيف: «فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب بل فى

(١) الأصول - الطبعة الأولى: ص ٧٨ - ٨١ بتصرف.
(٢) اللغة والنحو: ص٤٢، ٤٣.

كل القبائل العربية شمالا وغربا وشرقا وفى اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية» وفى رأيه أن المستشرقين جانبهم التوفيق فى الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب فى أن الفصحى هى عين اللهجة القرشية[1].

ويرى الرافعى أن نزول القرآن بلغة قريش يؤكد حقيقة السيادة القرشية يقول:

«الأصل أن القرآن نزل بلغة قريش لأن الرسول ﷺ قرشى، وليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قربش من العرب بجوار البيت وسقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام وغيرها من خصائصها».

بيد أن الرافعى يبالغ فى نسبة السيادة للهجة قريش إلى حد زعم فيه أن القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبى ﷺ من اللغة القرشية وما اتصل بها كان ذلك مغمزًا فيه، لأن العرب لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه وبين ما يأثرونه من كلام النبى ﷺ فيهون ذلك على قريش ثم على العرب فتنشق الكلمة ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبدًا[2].

ويضطرب الرافعى فى عرضه لفكرته عن نزول القرآن بلغة قريش، فيقرر ـ مرة أخرى ـ أن هناك لغات أخرى نزل بها القرآن - إلى جانب لهجة قريش يقول:

«اللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش هى لغة بنى سعد بن بكر الذين كان النبى ﷺ مسترضعًا فيهم، وهى إحدى لغات العجز من هوازن ثم لغات جشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، وأولئك هم أفصح العرب جملة ثم خزاعة وهذيل وكنانة وأسد وضبة وكانوا على قرب من مكة يكثرون التردد إليها ومن بعدهم قيس ومن جاورهم فى وسط الجزيرة.

---

(١) تاريخ الأدب - العصر الجاهلى د. ضيف ١/ ١٣٣، ١٣٤.

(٢) تاريخ آداب العرب ٢/ ٦٢، ٦٣.

ونحن حين نثبت الفصاحة لقريش لا ننفيها عن غيرها، ومع ذلك بقيت آثار هذه اللهجات بارزة فى القراءات القرآنية التى جاءت تيسيراً على الناطقين المسلمين فى جميع الأمكنة والأزمنة كما نقله ابن الجزرى فى النشر، وقد قال ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف».

فالعرب كانوا يقرأون بلحونهم على تنوعها واختلافها من تحقيق الهمز وتخفيفه والمد والقصر والفتح والإمالة والإظهار والإدغام وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم واستعمال الكلمات على أوجه مختلفة كبرىء وبراء وسرى وأسرى فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤] وقوله سبحانه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، إلى غير ذلك مما ذكرته كتب اللغة كالكامل للمبرد.

وفى كتب اللغة والنحو وردت شواهد وأمثلة لبعض هذه اللهجات التى مثلت بعض القواعد النحوية والظواهر اللغوية الصوتية والدلالية وغيرها مما يشهد أن بعضها له شهرة وذيوع وقوة فصاحة يمكن أن يحتج بها ويؤنس بنطقها كما قال ابن جنى: إن اللهجات كلها حجة.

فمن اللهجات البارزة: اللهجة التميمية والقيسية والأسدية وغيرها من لهجات هذه القبائل التى اشتهرت بالفصاحة وورد ذكر أصحابها فى كتب اللغة كالصاحبى والمزهر وغيرهما[1] ويعد الهمز صفة مستحسنة من صفات اللهجة التميمية بحيث أخذ به القرآن فى صورته المشهورة التى نزل بها وإن كان التسهيل إحدى القراءات المعتد بها كذلك لكن الهمز أشهر.

ومن آثار اللهجات المختلفة التى لا تزال باقية وتشهد بواقعها اللغوى الظواهر اللغوية المشهورة كالاشتراك والتضاد والترادف وتعدد الأوجه الإعرابية لبعض الألفاظ فى التراكيب اللغوية والقلب والإبدال وغيرها.

بل إن بعض الألفاظ تختلف من قبيلة إلى أخرى، وبعض هذه الألفاظ المنسوبة للهجات أخرى غير القرشية قد وقعت فى القرآن الكريم.

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/ ١٣٢.

ويذكر بعض العلمـاء أن نحو أربعيـن لغة وقعت فى القـرآن: قريش وهذيل وكنانة وخثعم وحميـر ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضـرموت والعمالقة وأنمار وغسـان ومذحج وخزاعة وسـبأ وعمـان وبنو حنيفة وطيئ وعـامر بن صعصـعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعـذرة وهوازن واليمامة[1] مما تضمنته لهجة قريش وما لم تتضمن.

وقد حاول أحـد الكاتبين أن يرسم العصبيـة المتمثلة فى لهجـة قريش لأنهم آل النبى ﷺ ومنهم نشأ فنشأ الشرف معهم لهذه القبيلة، وتمشى الشرف، وتسرب إلى لهجتهم فجـعلت أفصح اللهجات جميعًا وجعلت أسـاسًا للغة التى نزل بها القرآن وتنوسيت جميع اللهجات الأخرى[2].

ويقول: وقد توسع فقهاء اللغة العربيـة الأوائل وكثير من المتأخرين فى إثبات ما جاء فى الصـاحبى لابن فارس من أن لغـة العرب أفضل اللغـات وأوسعهـا وكان عليهم أن يواجـهوا مشـكلة تعدد لهجـات العرب التى كانـوا يسمونهـا لغات فى الموازنة مع لغة قريش التى نزل بها القرآن فاتفقت كلمتهم على أن لغة قريش كانت أرقى لغات العرب وجعلوا من لغة قريش معيار الصحة والفصاحة ولا شك بسبب نزول القرآن بلغة قريش، وبسـبب سيادة بنى قريش ولهجتهم بعـد انتصار الإسلام على بقية القبائل العربية ولهجاتها[3].

وهذا الحـديث الطويل قصـد به قائله الـغض مـن شأن اللهـجة القـرشيـة ـ بخصاصة ـ واللغة العربية ـ بعـامة ـ والغض من شأن أصحاب تلك اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم والتـقليل من أثرها فى تكوين اللغة العربية ومـحاولة إرجاع هذا الأثر إلى العصـبية للنبى ﷺ وإلى قـبيلة قريش لا إلى العـوامل الحقيقـية فى تفوق هذه اللهجة وهى عوامل كـثيرة: اجتماعية وسياسيـة ولغوية وكأن اللهجات

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٢/ ٦٤.
(٢) مقدمة فى فقه اللغة العربية: ص٦٠ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق ص ٦٧.

المنزوية المقهورة إنما قـهرت - فى زعمه - بحد السيف والجبـروت والتسلط وغلبة قريش على بقية القبائل ونقول:

إن وجود النبى ﷺ فى الأمة العربية أمـر جعلهم ـ بلا شك ـ أصحاب شرف وفخـر وامتد هذا الشـرف إلى الأمة الإسـلامية كلهـا بحمل رسـالة الإسلام التى صححت مسـار الحياة الإنسانية وليس هذا تعـصبًا بل بيان لحقيقـة الأمة التى تنشر دين الله وشريعة الحق والعدل فهى - من هذا الجـانب - مفضلة على الأمم الضالة الملحدة التـى لا تعرف الله وحقـوق الناس ولا تقيم العـدل، ولذا امتـدح القرآن الكريم الأمة الإسلامية فى إطارها العام ولم يخص العرب وحدهم حين قال:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أما أن العنصرية امتدت إلى سيادة قريش على غـيرها وسيادة لهجتها على سائر اللهجات والـلغات الأخرى فهو غـير وارد لا عن العرب ولا عـن عـلمـاء العربية وما قاله هذا الكاتب محض افتراء.

فسـيادة قـريش ولهجتـها لم تكن بعـد الإسلام ـ كـما تصور ـ بل مـن قبله وحقائق التاريخ ترشد إلى ذلك، وقد جاء الإسلام فوجد اللغة العامة - متمثلة فى معظم المادة اللغوية القرشية - فنزل بها وكان هذا مسايرة للواقع اللغوى الشائع فى البيئة العربية آنذاك.

وعلماء العربية تكلموا عن واقع موجـود ولم يكونوا متحاملين أو قائلين بشىء لا تؤيده الحقائق العلمية والآثار.

وإذا كان هذا الكاتب قـد اتهم أحمد بن فارس بالتعـصب- ومن بعده ومن قبله علماء العربية الآخرين ـ حين عقد بابا فى كتابه (الصاحبى) بعنوان: «باب القول فى أن لغة العرب أفـضل اللغات وأوسعها»[1] فإن الباحث المنصف يرى

(١) ص ٦ وما بعدها.

أن أحمد بن فـارس لم يكن متعصـبا فى هذا الباب الذى عقـده بل كان بصدد بيان بعض ما امتازت به العربية من غيرها من اللغات الأخرى، ولم يرد تفضيلا عصبياً ممقوتا.

والرجل لأنه فارسى الأصل يوازن بـين العربية والفـارسية التى يعـرفها فيـقرر امتياز العربية بوقوع الألفاظ المترادفة فيها ذلك لأنها تهيئ للمتكلم كثيراً من نواحى الإبانة والإيضاح بما لا يتـيسر فى اللغات التى تخلو من التـرادف فللسيف والأسد والفرس ألفاظ مترادفة فى العربية على حين أن الفارسية لا تعبر عن ذلك إلا باسم واحد، يقول ابن فارس:

لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نـذكر للسيف بالعربيـة صـفـات كثيرة، ومـعـلوم أن الـعـجم لا تعرف للأسد اسما غيـر واحد، وفى لغة العرب أكثر من خمسـمائة اسم، وهكذا غيرها من الأشياء المسمـاة بالأسماء المترادفة فأين هذا مـن ذاك؟ كما يقرر امتياز العـربية ببعض مظاهر البلاغـة ووجوهها كـالاستعارة والكنايـة والتمثيل والقلـب والتقديم والتأخـير وغيرها من السنن الذى يقع فى القرآن وكلام العرب شعرا ونثرا وذكر لذلك أمثلة.

كما يقرر أن العربية لا تجمع بين الساكنين وقد تجتمع فى لغة العجم وعندما قال ابن فارس: (إن القرآن نزل بلهـجة قريش) لم يكن ذلك تعصـبًا لأنهم أتباع النبى وذووه وبسبب نزول القرآن بها بل لأن القريشـية من قبل نزول القرآن الكريم كانت قد انتشرت بين العرب وأصبحت لغة عامة لأسبـاب أخرى كثيرة: اجتماعية ودينية وسياسية وتجارية لخصها ابن فارس حين قال:

«أجـمع علماؤنا بكلام العـرب والرواة لأشعـارهم والعلمـاء بلغاتهم وأيامـهم ومحالهم أن قريشـا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة فقـريش قطان الحرم وجيران البيت الحـرام وولاته فكانت وفود العرب من حجـاجها وغيـرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكـمون إلى قريش فى أمورهم وكانت قـريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها أهل الله لأنهم الصريح

من ولد إسماعيل عليه السلام لم تشبهم شائبة[1]، ولم تنقلهم عن مناسكهم ناقلة، فضيلة من الله جل ثناؤه لهم وتشريفا إذ جعلهم رهط نبيه الأدنين وعترته الصالحين.

وهذا دون شك بيان لبعض المزايا التى اختصت بها لغة العرب ولا عيب فى ذلك ولا تعصب على الإطلاق.

ولهذه المزايا قرر ابن فارس أن ترجمة القرآن أمر جد عسير إذ لا يمكن أن تحمل ألفاظ اللغات الأخرى المعانى التى تتضمنها التعبيرات القرآنية ذاوت المعانى الجامعة، فيقرر أنه لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلى شىء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله -عز وجل- بالعربية لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب[2].

و«لا وجه لمن يجيز قراءة القرآن فى صلاته بالفارسية، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة، إنما أمر الله -جل ثناؤه- بقراءة القرآن العربى المعجز»[3] وهذه شهادة من أحمد بن فارس الذى لم يكن شعوبياً فى دعوته بل جهر بالحقيقة التى تقول:

إن مزايا العربية تجعل ترجمة نص القرآن غير صحيحة لأنها تفوّت كثيراً من المعانى التى لا يمكن أن يعبر عنها اللفظ غير العربى.

وهذا يدحض فرية الكاتب المشار إليه فى نقله إجازة ترجمة القرآن فهو بهذا يفتح مجالاً فاسداً من مجالات دعاواه الباطلة.

ومن نص ابن فارس السابق نفهم أن قبيلة قريش سادت العرب لعدة أمور:

١- أنهم قطان الحرم وسدنة البيت ويلجأ إليهم سائر العرب لتعلم المناسك وهذه السمة الدينية أكسبتهم تقدير العرب واحترامهم وحققت لهم الزعامة الدينية وهذا قبل الإسلام بكثير.

---

(١) انظر الصاحبى ص ١٦-٢٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧.

٢- ونتيجة الزعامة الدينية وعوامل أخرى -كالتجارة والأسواق- أصبح لقريش زعامة سياسية على العرب ولا شك أن ذلك جعل غيرهم من القبائل يقلدهم فى لغتهم فمن عادة المعجب أن يقلد من يعجب به ومن عادة الطبقات الاجتماعية أن تخضع لصاحب السلطان الأقوى فى كل شىء وتحاول تقليده[١] مما جعل كثيراً من القبائل تترك كثيراً من مظاهر لهجاتها وتلجأ إلى محاكاة القبيلة ذات السيادة الطبيعية.

٣- ثم أضاف ابن فارس إلى ذلك أن القرشيين أنفسهم مع مالهم من زعامتين دينية وسياسية كانوا غير متعصبين للهجتهم فجعلوها تستفيد من لهجات إخوانهم العرب وتلك عادة لغوية تحقق الوفاء الكامل بحاجات المجتمع المتحضر الذى اتسع ليشمل قبائل العرب بأسرها فى مناطق الجزيرة الواسعة.

وكان للقرشيين اختيار وذوق رفيع فبعدوا عن كل شوائب اللهجات التى تحول بينها وبين الفصاحة مما يعكر صفوها أو يشينها يقول:

وكانت قريش -مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها- إذا أتت الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[٢].

وهذا دون ريب جعل للقرشية سيادة على غيرها من اللهجات أفادها بالحسن الجيد وزحزح عنها القبيح الردىء حتى استوت فى صورة عامة سيطرت على اللهجات الأخرى وجعلتها تنزوى، ويقتصر تداولها على المجتمعات والبيئات الخاصة أما فى المجتمع العام فقد سيطرت لغة مشتركة معظم مادتها قرشى وبعضها من اللهجات الأخرى، ولما جاء الإسلام وجد العربية مستوية على سوقها فى إطار لغوى عام فنزل بها كتابه القرآن الكريم، ولم يكن ذلك تعصبا للهجة قريش على

(١) انظر كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث) ص ١٧٦ وما بعدها.

(٢) الصاحبى ص ٣٣، ٣٤.

الإطلاق، وقد تهيأت لها فوق الأسباب المشار إليها قوة وسعة وهيبة وسلطان حينما حالفها الحظ بنزول القرآن الكريم بها حيث اختار الله نبيه من رهط قريش، وهذا هو ما ذهب إليه ابن فارس وسائر علماء اللغة.

والذى يدل على أن القرشية ضمت إليها بعض مظاهر اللهجات الأخرى ولم نثر عليها ثورة تحكم واستبداد أن القرآن اشتمل على عناصر أخرى غير القرشية، وقد أشار ابن فارس إلى ذلك فذكر أن القرآن جاء بلهجات اليمن كالأرائك فى قوله سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ [الإنسان: ١٣] فالأريكة ـ بلغة أهل اليمن ـ الحجلة فيها سرير «الحجلة مثل القبة وحجلة العروس معروفة وهى بيت يزين بالثياب والأسرة والستور»[١] وكذلك المعاذير فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٥] هى الستور وأهل اليمن يسمون الستر المعذار[٢].

وبعد هذا البيان نرى أن علماء العربية لم يقصدوا بمدح القرشية أنها أشرف لغات الأرض قاطبة على سبيل التعصب ضد غيرها، وإنما كان من باب بيان فضائل العربية ومزاياها، ومن هنا يفسد حكم الكاتب المشار إليه بأن كثرة التفاعلات بين العربية وغيرها من اللغات الأجنبية عنها هى التى أنضجت اللغة العربية إنضاجا عظيمًا وأكسبتها مرونة كافية، وخصوبة أفرغتها فى لهجة قريش وأمكنها ذلك وأهلها أن تكون وعاء لوحى عظيم فى عصر الرسول وأداة صالحة للتعبير الفكرى العميق حتى عصر ابن خلدون مما أهلها أن تقهر بعض ما جاورها من اللغات تمامًا كما قهرت اللغة اللاتينية عديدًا من لغات أوربا التى فتحها الرومان حتى نهاية العصور الوسطى وظهور القوميات الحديثة فى بداية نحو (١٤٠٠)م.

فهذا الحكم ـ فى رأينا ـ أصبح غير ذى موضوع، وأن ما بنى عليه يعد غير صحيح على الإطلاق بعد ما أوضحنا من صلات بين العربية وسواها من اللغات وأنها فرع اللغة السامية ذات الخصائص المستقلة.

---

(١) الصاحبى ص ٤٢ الأصل والتعليق.

(٢) الصاحبى ص ٤٢.

ونضيف فى تفنيد هذا الزعم أن القرشية لم تكتسب الزعامة بين لهجات العربية نتيجة لما دخلها من ألفاظ هندية أوربية أو مصرية قديمة بل إن الثابت تاريخياً ولغوياً أن زعامتها كانت نتيجة عوامل كثيرة هيأت لها سبيل الغلب كما ذكرنا.

وبهذا يثبت ما قرره علماؤنا من أن للعربية خصائصها واستقلالها وإذا كانت قد انتفعت باتصالها بغيرها من اللغات فهذا فى حدود القليل الذى لا يخل بشخصيتها على حد ما ذكر الجواليقى فى كتابه (المعرب) والشهاب الخفاجى فى كتابه (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) وأضرابهما من العلماء الذين أشاروا إلى بعض الألفاظ التى نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى، بل ربما أفادت العربية أكثر مما استفادت، ويكفى أن نعلم أن نحو نصف اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذ إما من الفارسية أو من العربية[1].

****

(١) دلالة الألفاظ د. أنيس ص: ١٥١.